الانسجام الصّوتي في عُرفِ الفلاسفة المسلمين

Phonetic Coherence in the Musulman Philosophers' Beliefs

أ : نصيرة شيادي

جامعة تلمسان .

الملخص:

إنّ فكرة الانسجام الصّوتي بين الأصوات اللغوية ليست جديدة أو غريبة عن الفلاسفة المسلمين. صحيح أنّ المصطلح لم يرِد في ثنايا مؤلّفاتهم و لكنهم ذكروا مصطلحات موازية له . كما أنهم لم يبحثوا في ظاهرة الانسجام الصوتي باستفاضة كما أثِرَ عن النحاة و اللغويين و البلاغيين و القرّاء ، و لكن هذا لا يمنع البتة أنّ الفلاسفة المسلمين أحسّوا بالقيمة المعنوية للأصوات داخل السّياق ، و خصائص المواد الصّوتية المشكلة لبنية اللفظ ، ممّا جعلهم يُدركون ظواهر التخفيف و تحقيق الانسجام بين الأصوات اللغوية في السلسلة الكلامية. .

الكلمات المفتاحية : الانسجام الصوتي . اقتران الحروف . التأليف . التركيب .

Abstract:

The idea of Phonetic Coherence between the linguistic sounds is neither recent nor strange in the views of Musulman Philosophers .

It's right that the term had not been dealt with through the pages of their books but they mentioned paralleled phonetic terms .In addition, they didn't search in Coherence phenomenon so widely as it is mainly cited by Grammarians and linguists as well as rethoricians and readers.Otherwise, this doesn't prevent Musulman Philosophers to feel the concrete value of sounds inside context and even the characteristics of phonetic features forming the structure of sound which leads them to recognize the stressed / unstressed phenomena so as to realize Coherence among the linguistic sounds beyond the speech sequence.

Key words :Phonetic Cohernce- Consonants' Successivity- Syntax

*** *** ***

قد اعتنى الفلاسفة المسلمون باللغة و عُلومها عناية بالغة فاقت من سبقهم ، و توصّلوا إلى الكثير من النتائج الدقيقة في المجالات التي نُسمّيها اليوم باللسانيات . فقد نهضُوا في مُؤلّفاتهم بدراسات صوتية هامّة. فكما تحدّث قُدماء النحاة و اللغويين أمثال الخليل (ت 175 هـ) و سيبويه (ت 180 هـ) و ابن جني (ت 392 هـ) عن الأصوات من حيثُ مخارجها و صفاتها ، و أحوال مجهورها ومهموسها، و عن الأصوات اللغوية مفردةً و داخل السّياق فالمجال كان رحبًا كذلك لاحتضانِ عُلماء آخرين صُنِّفُوا في إطارٍ فلسفيٍّ أمثال الكندي (ت 256 هـ) و الفارابي (ت 339 هـ) و ابن سينا (ت 428 هـ) و غيرهم من الفلاسفة كثير الذين تحدّثوا بدورهم عن الصّوت مفردًا و مندمجًا مع غيره من الأصوات ضِمنَ السلسلة الكلامية .

فالفلاسفة المسلمون أدركُوا كما أدركَ من سبقهم أنّ الأصوات اللغوية ليست عناصر متناثرة إنّما هي نظامٌ منسّق تحكمه علاقات خاصّة بهذه اللغة أو تلك. فمعلوم أنّ الكلام الإنساني عبارة عن سلاسل صوتية يتّصل بعضها ببعضٍ اتّصالا وثيقا. فنحنُ لا نتكلّم أصواتا مفردةً وإنما كلماتٍ وجُملا وفقراتٍ. وليس كلّ صوت صالحا لأن يجاور أيّ صوتٍ في السلسلة الكلامية. فمخرج الصوت وصفاته هي التي تُحدّد وُرودَ صوتٍ بعينهِ في موقعٍ بعينهِ، أو عدمَ وُرودهِ. ذلك أنّ أعضاء النطقِ لا تنطقُ كلّ صوتٍ مستقلاّ بمفردهِ

وإنما يتأثّرُ نُطقُ الصوت الواحد بالأصوات السّابقةِ عليه واللاّحقةِ له. ولهذا تحرصُ اللغات عامّة على أن يكون هناك انسجام تام بين الأصوات داخل الكلمات حتّى تؤمّن قدرا أعلى من السّهولة في النّطق، وحدّا أعلى من الوضوح في السّمع .[1] والأصوات تخضعُ لقواعد معيّنة في تجاورها وارتباطاتها ومواقعها وكونها في هذا الحرف أو ذاك.

و لكن معرفة الفلاسفة الموسوعية و مُشاركتهم في أكثر من علمٍ هي التي حجبت عنّا عملهم الصّوتي وجزّأت الحُكم عليه و هذا لا يمنعُنا البتّة من القول

إنّ هؤلاء الأفذاذ أحسُّوا بالقيمة المعنوية لأصواتِ اللغة و بنيةِ ألفاظِها، وخصائص المواد المشكّلة لها ذلك ما أشار إليه ابن رشد (ت 595 هـ) في قوله : " و إنّما صارت الألفاظ و الأصوات تفعلُ في هاتينِ الصّناعتينِ (الخطابة و الشعر) هذا الفعل من جهةِ أنها تخيّل في المعنى رفعة أو خسّة . و بالجملة أمرا زائدا على مفهوم اللفظِ مثل غرابة اللفظ فإنها تخيّل غرابة المعنى و النغم كذلك يفيدُ فيه هذا المعنى أيضا."[2] وبالتالي، فالفلاسفة المسلمون أدركُوا ما يعتري الأصوات حالة التركيب، فتحدّثوا عن أعقدِ قضيّةٍ في علم الأصواتِ الوظيفي ألا و هي: الانسجام الصّوتي ذلك أنّ الأصوات اللغوية تتأثّرُ بعضها ببعضٍ في المتّصل من الكلام . فحين ينطقُ المرءُ بلغتهِ نُطقا طبيعيا لا تكلّفَ فيه نلحظُ أنّ أصوات الكلمة الواحدة قد يُؤثّر بعضها في البعضِ الآخرِ ، كما نلحظُ أنّ اتّصالَ الكلمات في النطق المتواصل قد يخضعُ أيضا لهذا التأثّر. والأصوات في تأثّرها تهدفُ إلى نوعٍ من المماثلةِ أو المشابهةِ بينها ليزداد مع مجاورتها قُربها في الصفات أو المخارج و يسمى هذا التأثر بالانسجام الصّوتي بين أصوات اللغة .[3]

فهذا الأخير. أي الانسجام الصّوتي . يلزمه أن تتّسقَ الأصوات بعضها مع بعضٍ بحيثُ إذا تجاورَ صوتانِ متنافرانِ يُؤدّي نُطقهما إلى حُدوثِ الثّقل فلا بُدَّ من تغيير أحدهما ليسهل نُطق الكلمة " فمن العسير على اللّسان أن ينطق بصوتين متجاورين و هما من طبيعتين مختلفتين لما في ذلك من جهد على أعضاء النطق . "[4]

و هذا ما أدركه الفلاسفة المسلمون بحسّهم المُرهف في وقتٍ مُبكّر جدّا من تاريخ حضارتنا الإسلامية؛ فمصطلح الانسجام الصّوتي رغم أنه لم يرِد في ثنايا مؤلّفات الفلاسفة المسلمين إلاّ أنهم أدركُوا حقيقته . فمن الفلاسفة من ذكر مصطلحات تنمُّ عن فهمه للصّوت في علاقاته بما يُجاوره من الأصوات و مدى تفاعله و علاقاته التي لا تنظر للصّوت على أنه صوت مجرّد بل هو مجموعة مع

غيره من الأصوات . فالمقابلة بين المجهور و المهموس ، و المفخم و المرقق ، و الشديد و الرخو ، و بين مخرج و مخرج آخر في كلّ أولئك

وما يتّصل به من فهم دلالة كلّ مقابل من هذه المقابلات هو الأساس الذي يُبنى عليه الانسجام الصّوتي. وهذا ما ألفيناه عند ابن سينا الذي استعمل مصطلحا (الإبدال والمشابهة) في الفصل الخامس من رسالته أسباب حدوث الحروف الموسوم " بالحروف الشبيهة بهذه الحروف و ليست في لغة العرب " [5] حيث أدرك الواقع السيكولوجي للفونيم (الحرف) باعتباره صورة ذهنية مجرّدة ، و أدركَ الفرق بين هذه الصورة و بين تنوّع تحقّقها الفعلي عند أبناء اللغة و عند غير أبناء اللغة . [6]

فابن سينا في هذا الفصل يُشيرُ إلى فكرة الفونيم [7] والألفون[8] التي تتحقق في سياقات صوتية بعينها. فبعد أن عرضَ لفونيمات اللغة العربية مفردة؛ تناول تحققاتها المتغيرة حسب الموقع وحسب السياق مُدركًا الناحية الفونولوجية لأصوات اللغة العربية ولم تكن فكرة الرموز الصوتية قد ظهرت بعد كي يرسم أو يشير بها إلى ما يعنيه، فاستعان بذكر أصوات من لغات أخرى كان يعرفها غير اللغة العربية، و لكنه لم يذكر من أسماء هذه اللغات إلاّ الفارسية [9] التي هي لغته الأولى و التي كان على علم وثيق بها.[10] وأصوات أخرى سمعها من أعاجم اختلطُوا بالعرب أو من الأماكن المختلفة التي كان يزورها أو ينتقل إليها، وأطلق التسميات لأصوات ليست في لغة العرب ما زال بعضها يُستخدم إلى الآن مثل: الكاف الخفيفة والباء المشددة

وابن سينا لم يعنِ بذكره لهذه الأصوات أنّ هذه الأخيرة باعتبارها فونيمات مستقلة لكلّ منها صوت ووظيفة يُؤدّيها في الكلام مقتصرة على تلك اللغات الأخرى غير العربية . و إنما قد يتحقق بعضها في الكلام العربي و لكن باعتبارها صورا نطقية فرعية لفونيمات أصلية في اللغة العربية و هي تلك التي يُطلق عليها في الدراسات اللسانية مصطلح (الألوفونات)Allophones[11] و ليست لها صور

كتابية تُميّز نُطقها عن باقي أصوات المنظومة العربية ، مثل الأصوات الستة المستحسنة و السبعة غير المستحسنة [12] التي أضافها سيبويه و سمّاها بالفروع [13] و هي تقابل التسمية الأوربية ألوفونات .

فالنون مثلا و هو وحدة صوتية له نطق آخر فرع له أو تنوع أو ألفون و هو النون الخفيفة . و كذلك الهمزة لها ألفون و هو الهمزة التي بين بين ، و كذلك الألف و الشين و الصاد لها فروع من الأصوات الستة المستحسنة . و مثل هذا التوظيف نجده عند ابن سينا الذي ذكر السين الصادية ، فأشار بالكلمة الأولى إلى فونيم السين / S / و بالكلمة الثانية إلى مُتغيّر هذا الفونيم أو الألفون [S] و إشارة في الوقت نفسه لمصطلح المماثلة التي تعدّ من متطلبات الانسجام الصوتي . فمثلا في صيغة (استفعل) لكلمة مثل (اصطبر) أصلها صبر ثم وُضعت في صيغة استفعل فصارت التاء طاء بسبب تماثلها مع الصاد المطبقة قبلها فصارت السين سينا صادية .[14]

فإذا تأثر صوت ما بسبب من وضعه في الكلمة فاكتسب صفة غير صفته كأن تتحول الباء المجهورة إلى باء مهموسة في الكلمة دون أن يتأثر المعنى فإنّ هذا الصوت لا يكون وحدة صوتية و إنما تنوعا صوتيا أو ألفونا ، مثل : كلمة (كبت) فالباء هنا مهموسة بسبب من موضعها بين صوتين مهموسين و هي تنوع للباء أمّا كلمتا (كتب و كاتب) فإنّ الحركة هي الفارق بين الكلمتين و هي السبب في تغيير المعنى بين الكلمتين و لذلك فإنّ الحركة هنا وحدة صوتية أو فونيم .

فالذي يحدث بين الصوتين المتجاورين في الكلمة مثل ما يحدث بين المواد المحملة بالكهرباء . فتجاور مادتين من هذه المواد يحدث بينهما تجاذبا إذا كانتا مختلفتين في نوع كهربائهما بأن كانت إحداهما موجبة

و الأخرى سالبة و تنافرا إذا كانتا متحدتين فيه بأن كانت كلتاهما موجبة أو سالبة . وكذلك يفعل أحيانا التجاور أو التقارب بين الصوتين.[15] فالذي يحدث بين الأصوات المتجاورة والمتقاربة في الكلمة من ظواهر التفاعل أنواع كثيرة لذلك

تعدّدت جوانب النظر واختلفت طريقة معالجة الانسجام الصوتي من فيلسوف لآخر فإذا كان ابن سينا تطرّق لفكرة الفونيم والألفون عن طريق عرض فونيمات اللغة العربية وتحققاتها المتغيرة حسب الموقع وحسب السياق محاولا شرح حقيقة الانسجام الصوتي كما وُقّرت في ذهنه، فإنّ من الفلاسفة المسلمين من ذكر مصطلحات موازية لمصطلح الانسجام الصّوتي كالاقتران، والتركيب، والتأليف.

1 . الاقتران :

لقد تردّد مصطلح الاقتران في ثنايا مؤلَّف الجاحظ (ت 255 هـ) البيان و التبيين ففي تصوّره ، الفصاحةُ تنطلق من بنية اللفظ الصوتية و انسجام الحروف المركبة له و تآلفها . و قد بلور هذا المقياس الهام في مصطلح يبدو ثابتا واضح المعالم في أصول نظريته الأدبية هو (الاقتران) [16] و هو في تفسيره " التشابه و الموافقة "[17] . و لئن كان هذا التفسير غير دقيق في دلالته على أوجه الشبه و الموافقة بين الحروف لخُلوّه من كلّ تحليل منطقي لكيفية تعامل الأصوات فإنّ الأمثلة التي أوردها للاستدلال على كِبر هذا الباب على ما يقول دليلا على أنّ المقصود تجنّب الجمع بين الحروف المتنافرة من حيث المخرج أو الصّفة .[18] فقد ذكر أنّ الجيم لا تُقارن الظاء و لا القاف و لا الطاء و لا الغين بتقديم و لا تأخير. والزاي لا تقارن الظاء ولا السين و لا الضاد و لا الذال بتقديم و لا تأخير.[19]

وإذا ولجنا الموروث الفلسفي نجدُ الكندي يسيرُ على نهجِ الجاحظِ في تحديده لمدلول الاقتران . فالكندي يُعدُّ من أسبقِ الفلاسفة المسلمين في استِقصاءِ قواعدِ الانسجام الصّوتي. فقد شرح في رسالته استخراج المعمّى القواعد الأساسية التي يُنطلقُ منها لتحديد ما يُقترنُ من الحروف و ما لا يُقترن و هذا يدلّ على تنبّهه المُبكّر على الظّواهر و القوانين اللسانية، و حُسنِ الاستِفادةِ منها ، ذلك لأنه يبحث في نسجِ الكلمة و ما يُمكنُ أن تُبنى منه ، و ما لا يُمكن ممّا ينضوي تحت علم قوانين الألفاظ المفردة الذي وصفه أبو نصر الفارابي في كتابه إحصاء العلوم بقوله : " وعلم قوانين الألفاظ المفردة يفحصُ أوّلا في الحروف المعجمة

عن عددها و من أين خرج كلّ واحدٍ منها في آلات التصويت . و عن المصوّت منها و غير المصوّت وعمّا يتركّب منها في ذلك اللسان و عمّا لا يتركّب . و عن أقلّ ما يتركّب منها حتى حدث عنها لفظة دالة . و كم أكثر ما يتركب و عن الحروف الذاتية التي لا تتبدّل في بنية اللفظ عند لواحق الألفاظ من تثنية و جمع و تذكير و تأنيث و اشتقاق وغير ذلك . " [20]

فالفائدة من الاقتران و التلاؤم حسنُ الكلام في السّمع، وسُهولته في اللفظ، وتقبّل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حُسنِ الصوت و طريقة الدلالة. [21]

و تتلخّصُ القواعد الأساسية لتحديد ما يُقترنُ من الحروف و ما لا يُقترن بتقسيم الكندي حروف العربية إلى أصلية و متغيرة يقول : " إنّ الحروف التي يعرض لها أن لا تقترن هي الحروف الأصلية .[22] فإنّ بعضها يعرض له ألاّ يقارن بعضها بعضا بالتقديم و التأخير و تقديم فقط أو تأخير فقط . و أما الحروف المتغيرة أعني التي يعرض لها أن تكون تارة أصلية و تارة زوائد . [23] فليس بمُمتنعٍ من مقارنةِ كلّ الحروف بالتقديم و التأخير ، و تقديم فقط أو تأخير فقط . " [24]

فالحروف الأصلية أبدا التي لا تتغير البتة فلا تكون زوائد بوجه من الوجوه و هي ستة عشر حرفا وهي : الثاء . الجيم . الحاء . الخاء . الدال . الذال . الراء . الزاي . الشين . الصاد . الضاد . الطاء . الظاء . العين . الغين . القاف .[25]

وأما المتغيرة فهي التي تكون زوائد تارة وأصلية تارة، وهي اثنا عشر حرفا وهي: الألف . الباء . التاء السين . الفاء . الكاف . اللام . الميم . النون . الهاء . الواو . الياء. [26]* و يعرضُ لها . أي المتغيرة . أن تُقارنَ كلّ الحروف على التقديم و التأخير إلاّ السيّن فإنها لا تقارن الثاء و لا الذال و لا الصاد و لا الضاد و لا الظاء بتقديم و لا تأخير. [27]**

جدول يُمثل ما يُقترنُ من الحروف الأصلية عند الكندي

الحرف	الرمز	ما يأتلف معه
الثاء	↔	الألف ـ الباء ـ التاء ـ الجيم ـ الحاء ـ الخاء ـ الدال ـ الراء ـ العين ـ الغين ـ الفاء ـ القاف ـ الكاف ـ اللام ـ الميم ـ النون ـ الهاء ـ الواو ـ الياء .
الشين	←	الثاء
الجيم	←	الألف ـ الباء ـ التاء ـ الثاء ـ الحاء ـ الخاء ـ الدال ـ الذال ـ الراء ـ الزاي ـ القاف ـ السين ـ الشين ـ الضاد ـ العين ـ الفاء ـ الكاف ـ اللام ـ الميم ـ النون ـ الهاء ـ الواو ـ الياء ـ الصاد .
الراء	↔	الألف ـ الباء ـ التاء ـ الثاء ـ الجيم ـ الحاء ـ الخاء ـ الدال ـ الذال ـ الزاي ـ السين ـ الشين ـ الصاد ـ الضاد ـ الطاء ـ العين ـ الغين ـ الفاء ـ القاف ـ الكاف ـ اللام ـ الميم ـ النون ـ الهاء ـ الواو ـ الياء .
الزاي	↔	الألف ـ الباء ـ التاء ـ الجيم ـ الحاء ـ الخاء ـ الدال ـ الراء ـ العين ـ الغين ـ الفاء ـ القاف ـ الكاف ـ اللام ـ الميم ـ النون ـ الهاء ـ الواو ـ الياء .
الزاي	→	الشين ـ الضاد .
الزاي	←	الطاء
الشين	↔	الألف ـ الباء ـ التاء ـ الجيم ـ الحاء ـ الخاء ـ الدال ـ الراء ـ الطاء ـ العين ـ الغين ـ الفاء ـ القاف ـ الكاف ـ اللام ـ الميم ـ النون ـ الهاء ـ الواو ـ الياء .
الشين	←	الثاء ـ الذال ـ الزاي ـ السين ـ الصاد ـ الظاء .
الصاد	↔	الألف ـ الباء ـ التاء ـ الحاء ـ الخاء ـ الراء ـ العين ـ الغين ـ الفاء ـ القاف ـ الكاف ـ اللام ـ الميم ـ النون ـ الهاء ـ الواو ـ الياء .
الصاد	→	الجيم ـ الشين .

و قد بلغ مجموع حالات التنافر بين الحروف أو ما لا يقترن حسب اصطلاح الكندي أربعا و تسعين (94) وهو عدد لا يستهان به في تلك الفترة المبكرة من تاريخ دراستنا اللغوية و لا نعلم أحدا من علماء العربية سبقه إلى ذلك . [29]

جدول يمثل ما لا يقترن من الحروف عند الكندي [30]

الحرف	الرمز	ما لا يأتلف معه
السين	↔	الثاء ـ الذال ـ الصاد ـ الضاد ـ الظاء .
الثاء	↔	الذال ـ الزاي ـ الصاد ـ الضاد ـ الظاء ـ السين .
الثاء	←	الشين
الذال	↔	الثاء ـ الزاي ـ الصاد ـ الضاد ـ الطاء ـ الظاء ـ السين .
الذال	←	الشين ـ الغين .
الزاي	↔	الثاء ـ الصاد ـ الظاء ـ السين ـ الذال .
الزاي	←	الشين ـ الضاد .
الزاي	→	الطاء .
الصاد	↔	الضاد ـ الطاء ـ الظاء ـ الثاء ـ الذال ـ الزاي ـ السين .
الصاد	←	الجيم ـ الشين .
الصاد	→	الدال .
الضاد	↔	الطاء ـ الظاء ـ الشين ـ الثاء ـ الذال ـ الصاد ـ السين .
الضاد	→	الدال ـ الزاي .
الظاء	↔	الطاء ـ الجيم ـ الذال ـ الثاء ـ الزاي ـ الصاد ـ الضاد ـ الدال ـ السين .
الظاء	←	الحاء ـ القاف ـ الشين ـ الخاء .
الجيم	→	الصاد .
الجيم	↔	الطاء ـ الغين ـ القاف ـ الظاء .
الحاء	↔	الخاء ـ العين ـ الغين .
الحاء	→	الظاء .
الخاء	↔	الغين ـ الحاء .
الخاء	→	العين ـ الظاء .
الدال	←	الزاي ـ الطاء ـ الصاد ـ الضاد .
الشين	↔	الضاد .
الشين	→	السين ـ الزاي ـ الصاد ـ الثاء ـ الذال ـ الظاء .
العين	↔	الغين ـ الحاء .
الغين	↔	الحاء ـ الخاء ـ العين ـ الجيم .
الضاد	←	القاف .
الطاء	↔	الصاد ـ الضاد ـ الذال ـ الظاء ـ الجيم .
الطاء	←	الزاي .
الطاء	→	الدال .
العين	←	الخاء .
الغين	→	القاف ـ الذال .
القاف	↔	الجيم .
القاف	←	الغين .
القاف	→	الضاد .
الراء		تتصل بجميع الحروف بالتقديم و التأخير و لا يعرض لها ما يعرض لغيرها من الحروف الأصلية التي لا تتغير أبدا . [31]

2 . التركيب :

استخدم الفارابي مصطلح التّركيب قاصدًا به التّأليف الصوتي ، يقول :" إنّ الإنسان و سائر الحيوان المصوّتة لها بالطّباع في كلّ حالٍ من أحوالها اللّذيذة أو المؤذية نغمٌ تستعملها ... و أكثر هذه هي في الإنسان و هي الأصوات التي يُركّب الإنسان منها الألفاظ ." 32

و إلى التوظيف نفسِه جنحَ ابن رشد فاستخدم مصطلح التّركيب قاصدًا به التّأليف الصّوتي أيضا ، يقول " و أمّا المغلّظة فهي الألفاظ التي يعسُر النّطق بها . و ذلك يعرضُ لسببين : منها أن تكون تلك الحروف حروفا يعسُر النّطق بها . و منها أن يكون سببُ العُسر فيها كثرةُ الحروف التي رُكِّبتْ منها و التي يَعسُرُ النّطقُ بها إمّا أن يكون من أجل مُخرج الحرف نفسه و إن نطق به وحده ، مثل كثير من الحروف الحلقِ . و إمّا أن يكون العُسرُ يحدث له عند تركيبهِ مع غيرِهِ ، و ذلك إمّا لتقاربِ مخارجها و هذا هو سببُ الإدغامِ في لسانِ العربِ ."33

إنّ ابن رشد بإشارته للإدغام الذي يُعدُّ إحدى الرّكائز التي تستنجدُ بها العربية لتفادي كلّ تنافرٍ أو تباعدٍ يُصيبُ أصواتها يجعلنا نقول أنّ ابن رشد قرّبنا أكثر لحقيقة الانسجام الصّوتي الذي يمسّ الأصوات اللغوية حالة التركيب و ذلك أنّ اللغة مبنية من وحدات صغيرة تتجمّعُ لتُشكّل وحدات أخرى أكبر منها ، و الذي نسمعه حين نُنصت و الذي ننتجه حين نتكلّم هو سلاسل من الأصوات تتفاوت طولا و لكنّها مركّبة و منسجمة دائما .

و التّوظيف نفسُه نجده عند فخر الدين الرازي (ت 606هـ) الذي يَعتبرُ الشّرط في تركيب الحروف أن يكون التركيب معتدل المزاج . فإنّ من التركيبات ما يكون متنافرا جدّا كقوله :

وَ قَبْرُ حَرْبٍ بمَكَانٍ قَفْرٍ وَ لَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْر .34

فيقول : إنه لا يستطيع أحد أن يُنشدَ هذا البيت ثلاث مرات فلا يُتعتع و لا يتلجلج .35

و بالتالي ، فخصائصُ الأصوات في التركيب تختلف عمّا هي عليه مفردة منعزلة اختلافا كبيرا أو يسيرا36 و هذا ما جعلَ أبناء اللغة يُفكرون في أساليب متعددة لتضييق دائرة الاختلاف فيحدثُ التأليف بين الحروف لتحقيق الانسجام.

3 . التأليف :

لقد تردّد مصطلح التأليف كثيرا و كثيرا جدّا في ثنايا مؤلفات اللغويين و البلاغيين خاصّة و ذلك حين تعرّضُوا لفصاحة اللفظ المفرد . فالخليل استعمل مصطلح (تأتلف) في معرض تنبيهه إلى ما يجوز تأليفه من الحروف و ما لا يجوز في لغة العرب . 37 وعرّف أبو الحسن الأخفش (ت 215 هـ) الكلام بأنه "أصوات مؤلفة "38 و استعمل الجاحظ مصطلح التأليف عندما عرّف الصّوت قائلا : " لن تكون حركات اللسان لفظا و لا كلاما موزونا ومنثورا إلاّ بظهور الصوت و لا تكون الحروف كلاما إلاّ بالتقطيع والتأليف"39

و ذكر ابن جني مصطلح التأليف في مواضع عدّة من كتابه (سر صناعة الإعراب) و انتهى إلى أنّ تأليف الحروف على ثلاثة أضرب : أحدها تأليف المتباعدة و هو الأحسن و الآخر تضعيف الحرف نفسه و هو يلي القسم الأول في الحسن و الآخر تأليف المتجاورة و هو دون الاثنين الأولين ، فإمّا رُفض البتة و إمّا قلّ استعماله . "40

أمّا الرماني (ت 386 هـ) فيُقسّمُ التأليف إلى ثلاثة أوجه : متنافر و متلائم في الطبقة الوسطى و متلائم في الطبقة العليا قاصدا بهذا الأخير القرآن الكريم كله 41 يقول : " و السبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، فكلّما كان أعدل كان أشدّ تلاؤما ..."42

واستعار ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) من أستاذه ابن جني أوصاف اللفظة الفصيحة . فذكر أنّ أوّل الأوصاف و أهمّها تباعد مخارج الحروف ، ويُحلّل ذلك تحليلا واضحا مع بيان علّته في الفصاحة " بأن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج و علّة هذا واضحة و هي أنّ الحروف التي هي

أصوات تجري من السّمع مجرى الألوان من البصر ، و لا شكّ في أنّ الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة . و لهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه و بين الأصفر و بُعد ما بينه و بين الأسود . و إذا كان هذا موجودا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة . و هذه العلة لا يمكن لمنازع أن يجحدها . و مثال التأليف من الحروف المتباعدة كثير . فأمّا تأليف الحروف المتقاربة فمثل (الهعخع) و لحروف الحلق مزية في القبح إذا كان التأليف منها فقط و أنت تُدرك هذا و تستقبحه كما يقبح عندك بعض الأمزجة من الألوان و بعض النغم من الأصوات ."43

لقد استفاد الفلاسفة المسلمون من حصاد اللغويين و البلاغيين على حدّ سواء ، فاختلف توظيف مصطلح التأليف من فيلسوف لآخر و لكن الغاية دائما كانت الرغبة في الوصول لتحقيق الانسجام الصوتي سواء على مستوى الحروف مركبة مع بعضها في الكلمة أو على مستوى النغمات الموسيقية . فلقّب إخوان الصّفا حروف المعجم بالحروف المؤلفة 44 كما عرّفوا الحروف بقولهم أنها : " أصوات مفردة إذا أُلّفت صارت ألفاظا..." 45

كما استعمل الفلاسفة المسلمون مصطلح التّأليف للدلالة على التأليف بين الأصوات الموسيقية في الحدة و الثقل أي النغمات التوافقية . فمفهوم الموسيقيين للتّأليف بين الأصوات " أن تكون الألحان ممّا تستلذّه المسامع و تستريح له النفوس . و ذلك إذا كانت بين النغم نِسب رياضية بسيطة تُعبرُ عن تردّداتها . أو أطوالُ الأوتار المحدثة لها بأعدادِ المتوالية العددية : اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة أو ما شابهها " 46

و قد ذكر الكندي نحوا من ذلك فقال : " و إذْ يُكملُ صناعة التأليف الصوتي أن تكون مسموعات الأصوات مؤتلفة مُستحسنة في السّمع ، مُستأثرة

ولا مُستكرهةً فإذن ينبغي أن تكون جميعُ هذه الحالات التي وصفنا . مؤتلفة . أعني أن ننتقل من نغمةٍ إلى نغمةٍ متآلفةٍ لها أعني معها في نسبةٍ بسيطةٍ ." 47 واستعمل إخوان الصفا مصطلح (ائتلاف الأصوات) و ذكروا بأنه الجمع بين الأصوات الحادة و الغليظة بنسبة تأليفية . 48

استنادا لكلّ ما تقدّم نقول إنّ الفلاسفة المسلمين ولجوا إلى البنى الباطنة العميقة و استظهروا أداءها التبليغي والجمالي و ذلك بوقوفهم على حقيقة الانسجام الصوتي و لذلك نقول إنّ الحديث عن ظاهرة الانسجام الصّوتي عند الفلاسفة المسلمين أصبح أمرًا ضروريا نظرًا لتميّز دراستهم و سبقهم إلى الكثير من الأفكار النورانية هذا من جهة ، و من جهة أخرى إظهار المصطلحات التي تبنوها للدلالة على ظاهرة الانسجام الصوتي . إذ لو يُوجّه اليوم الباحثون العرب في حقل الصوتيات عنايتهم إلى المصطلحات التّراثية لأغنتهم عن كثير من المقابلات الأجنبية .

الهوامش :

1 . أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة العربية ، فوزي حسن الشايب ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ط1 ، 1425هـ ، 2004 م ، ص 139 .

2 . تلخيص الخطابة ، أبي الوليد بن رشد ، تحقيق : محمد سليم سالم ، الكتاب الرابع عشر ، القاهرة ، دط 1387هـ ، 1967 م ، ص 530 .

3 .الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 4 ، 1961 م ، ص 179 .

4 . في النحو العربي قواعد و تطبيق على المنهج العلمي الحديث : مهدي المخزومي ، مطبعة مصطفى البابي ، القاهرة ، ط 1 ، 1966 م ، ص 4 .

5 . عدد الحروف الشبيهة بهذه الحروف و ليست في لغة العرب سبعة عشر صوتا هي : الكاف الخفيفة الحرف الشبيه بالجيم ، و الجيم الشبيهة بالزاي ، و الجيم الشبيهة بالسين ، و الجيم الشبيهة بالصاد ، و السين الصادية ، و السين الزائية ، و الزاي الشينية ، و الراء الغينية ، و الراء اللامية ، و الراء المطبقة ، و اللام المطبقة ، و الزاي الظائية ، و الفاء التي تكاد تشبه الباء ، و الباء المشددة ، و الميم ، و النون . ينظر : رسالة أسباب حدوث الحروف ، الشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن سينا ، تحقيق : محمد حسان الطيان و يحيى مير علم ، مراجعة و تقديم : شاكر الفحام ، أحمد راتب النفاخ ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ط 1 1403 هـ ، 1983 م ، ص 86 . 127 .

6 . علم الأصوات عند ابن سينا ، محمد صالح الضالع ، دار المعرفة الجامعية ، ع ش موتير ، الاسكندرية دط ، دت ، ص 74 .

7 . الفونيم مصطلح تشكيلي تدور حوله بحوث كثيرة . ينظر: علم الأصوات ، بارتيل مالبرج ، دراسة و تعريب : عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، المنيرة ، مصر ، دط ، دت ، ص 229 .

8 . الألفون : هو عنصر من عناصر الفونيم تغييره لا يغير المعنى . و يمكن للألفون أن يكون عنصرا اختياريا كتعدد صور الجيم و القاف و الضاد من بيئة إلى أخرى ، و يمكن أن يكون عنصرا إجباريا تحدده مواضع معينة في السياق فلا يجوز أن يحلّ عنصر محلّ عنصر آخر . فمثلا الموضع الذي يردُ فيه ألفون النون بصورة فيها غنة كما في (من يعمل) لا يجوز أن يحلّ فيه ألفون فيه صورة النون الغارية أو الشفهية . ينظر: مبادئ اللسانيات ، أحمد محمد قدور ، دار الفكر ، دمشق ، ط 3 ، 1429 هـ ، 2008 م ، ص 149 150 . 151 .

9 . اللغة الفارسية أطلّت برأسها في القرن الثالث الهجري لابسة ثوبا عربيا بعد أن كتبت بالخط العربي و طُعّمت بكثير من العناصر العربية المتنوعة التي لم تقتصر على الألفاظ و العبارات بل تعدّتها إلى الأوزان و القوافي و الفنون البلاغية المختلفة . و كتابتها بالخط العربي توفر على الدارس الذي يعرف العربية الجهد الذي يبذله كل من يريد دراسة لغة جديدة تكتب بحروف غير حروف لغته الأصلية . ينظر: قواعد اللغة الفارسية ، عبد النعيم محمد حسنين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط 1 ، 1970 م ، ص 7 .

10 . الأصوات اللغوية ، ص 146 .

11 . الألفون يترجم صوتي و هي ترجمة الأستاذ النعيمي . ينظر: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية عبد العزيز الصيغ ، دار الفكر ، سوريا ، ط1 ، 1421 هـ ، 2000 م ، ص 225 . 226 .

12 . الأصوات المستحسنة في قراءة القرآن و الشعر هي : النون الخفيفة ، و الهمزة التي بين بين ، و الألف التي تمال إمالة شديدة ، و الشين التي كالجيم ، و الصاد التي تكون كالزاي ، و ألف التفخيم يعنى بلغة أهل الحجاز في قولهم : الصلاة و الزكاة و الحياة . و الأصوات السبعة التي لا تستحسن في قراءة القرآن و لا الشعر هي : الكاف التي بين الجيم و الكاف ، و الجيم التي كالشين ، و الضاد الضعيفة ، و الصاد التي كالسين و الطاء التي كالتاء ، و الظاء التي كالثاء ، و الباء التي كالفاء . ينظر: الكتاب ، سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق و شرح : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط 1 ، دت ، 4 / 432 .

13 . الكتاب 4 / 432 .

14 . علم الأصوات عند ابن سينا ، ص 75 و ينظر: الأصوات اللغوية عند ابن سينا . عيوب النطق و علاجه . نادر أحمد جرادات ، الأكاديميون للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، ط 1 ، 1430هـ ، 2009 م ص 132 .

15 . علم اللغة: علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 9، 2004ص 298.

16 . التفكير البلاغي عند العرب أسسه و تطوره حتى القرن السادس الهجري : حمادي صمود ، منشورات الجامعة التونسية ، دط ، 1981 م ، ص 266 .

17 . البيان و التبيين : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 7 ، 1418هـ 1998 م ، 1 / 206 .

18 . التفكير البلاغي عند العرب أسسه و تطوره إلى القرن السادس ، ص 266 .

19 . البيان و التبيين ، 1 / 69 .

20 . إحصاء العلوم : أبي نصر الفارابي ، قدم له و شرحه و بوبه : علي بوملحم ، دار و مكتبة الهلال بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1996 م ، ص 20 .

21 . اللغة العربية أداء و نطقا و كتابة : فخري محمد صالح ، دار الوفاء للطباعة و النشر ، ط 2 ، 1994 م ص 99 .

22 . يعني الكندي بالأصلية : ما كان من الاسم أو من بنية الكلمة . ينظر : رسالة في استخراج المعمى ص 238 ضمن علم التعمية و استخراج المعمى عند العرب : دراسة و تحقيق لرسائل الكندي و ابن عدلان وابن الدريهم ، محمد مراياتي ، و يحيى مير علم ، و محمد حسان الطيان ، تقديم : شاكر الفحام ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، 1407 هـ ، 1987 م .

23 . يعني الكندي بالزوائد : ما لحق الاسم بتصريفه في الأزمان أو الأعداد أو التذكير أو التأنيث أو الإضافة أو التشبيه أو العلة أو النسق . ينظر : رسالة في استخراج المعمى : ص 239 .

24 . رسالة في استخراج المعمى : ص 238 .

25 . رسالة في استخراج المعمى : ص 239 . 240 .

*. تشتمل هذه الحروف على حروف الزيادة المعروفة (سألتمونيها) بالإضافة إلى الكاف و الباء و الفاء . و هي التي عناها الكندي بقوله : (أو التشبيه أو العلة أو النسق) . فهذه المعاني الثلاثة الأخيرة يعبر عنها بالأحرف الثلاثة التي أضافها الكندي على حروف الزيادة المعروفة . فالكاف للتشبيه و الباء للعلة و الفاء للنسق . و الجدير بالذكر أنّ الكندي يعدّ الهمزة و الألف حرفا واحدا ، و عليه فالزوائد تسعة أحرف تضاف إليها هذه الثلاثة فتغدو اثني عشر حرفا و هي مجموع الحروف المتغيرة . ينظر : علم التعمية و استخراج المعمى عند العرب ، ص 133 ، 240 .

26 . رسالة في استخراج المعمى : ص 240 .

27 . رسالة في استخراج المعمى : ص 240 .

**. استثناء الكندي للسين غير دقيق لأنّ الكاف و هي من المتغيرة لا تقارن القاف و لا الجيم بإجماع أئمة اللغة و كذلك الهاء لا تقارن بقية حروف الحلق و مثلها الهمزة . ينظر : علم التعمية و استخراج المعمى عند العرب ، ص 241 .

28 . رسالة في استخراج المعمى : ص 252 . 254 .

29 . علم التعمية و استخراج المعمى عند العرب ، ص 133 .

رمز مستعمل للدلالة على التقديم و التأخير .

⟵ رمز مستعمل للدلالة على تقدّم الصوت الأول

⟶ رمز مستعمل للدلالة على تقدّم الصوت الثاني

30 . رسالة في استخراج المعمى : ص241 . 252 .

31 . هذا الحكم يخالف ما جاء في المعاجم من أن النون لا تتقدم الراء . ينظر : علم التعمية و استخراج المعمى عند العرب ، ص 248 .

32 . كتاب الموسيقى الكبير : أبي نصر الفارابي ، تحقيق و شرح : غطاس عبد الملك خشبة ، مراجعة و تصدير : محمود أحمد الحفني ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ، القاهرة ، دط ، دت ، 1 / 63 .

33 . تلخيص الخطابة : ص 537 .

34 . الرجز بلا نسبة في نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، طبع بمطبعة الآداب ، مصر ، القاهرة ، دط ، 1317هـ ، ص 26 .

35 . نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص 26 .

36 . الأصوات اللغوية رؤية عضوية و نطقية و فيزيائية : سمير شريف إستيتية ، دار وائل للنشر و التوزيع عمان ، الأردن ، ط 1 ، 2003 م ، ص 326 .

37 . كتاب العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ترتيب و تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1424هـ ، 2003 م ، 1 / 43 .

38 . العروض : أبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش ، تحقيق : أحمد محمد عبد الدايم عبد الله ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، 1405هـ ، 1985 م ، ص 123 .

39 . البيان و التبيين 1 / 79 .

40 . سر صناعة الإعراب : أبي الفتح عثمان بن جني ، دراسة و تحقيق : حسن هنداوي ، دار القلم للطباعة و النشر ، دمشق ، ط 1 ، 1405هـ ، 1985 م ، 2 / 816 .

41 . النكت في إعجاز القرآن ص 94 . 95 ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني و الخطابي و عبد القاهر الجرجاني ، حققها و علق عليها : محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام ، دار المعارف مصر ، ط 3 ، 1976 م .

42 . النكت في إعجاز القرآن ، ص 96 .

43 . سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي ، تحقيق : علي فودة ، القاهرة ، ط 1 ، 1932 م ، ص 64 .

44 . رسائل إخوان الصفا و خلان الوفاء : تقديم : عليوش عبود ، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية ، الجزائر ، دط ، 1992 م ، 3 / 290 .

45 . الرسائل 2 / 15 .

46 . في خبر صناعة التأليف : أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي ، تحقيق : يوسف شوقي ، دار الكتب القاهرة ، دط ، 1969 م ، ص 67 .

47 . في خبر صناعة التأليف ، ص 101 .

48 . الرسائل 1 / 260 و 3 / 323 .

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊